عرض كتاب: علوم الإعلام والاتصال وإشكاليات التكوين المهني في العالم العربي
د. مي العبد الله (الجامعة اللبنانية)
دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٠٩، ٤٤٤ صفحة

تقديم
د. الصادق رابح، كلية الاتصال، جامعة الشارقة

تميل الكثير من المؤسسات الأكاديمية، خاصة الأنجلوسكسونية، الى التمييز بين الدراسات الاتصالية والدراسات الإعلامية. أما في الفضاء الفرنكفوني، فعلى الرغم من ولع الفرنسيين بعقلانيتهم الديكارتية ووضعيتهم الكونتية (نسبة الى أوجست كونت) والذين كانا من المتوقع أن يدفع بهم الى إنتاج تنظيم أكاديمي يفصل بين الدراسات الاتصالية والدراسات الإعلامية كما حصل في تمييزهم بين العلوم الدقيقة والعلوم الاجتماعية والإنسانية، فقد تم دمج الحقلين تحت مسمى علوم الإعلام والاتصال (ICS)، مع ما صحب ذلك من جدل أكاديمي ما زال قائما الى اليوم. فقد أشار جون ميريا (Jean Meyriat) عندما تم إنشاء لجنة علوم الإعلام والاتصال في شهر فبراير ١٩٧٥ الى أنه "تم تبني مصطلح علوم الإعلام والاتصال (ICS) لأسباب تتعلق بفاعليته. هناك إحساس بأن كلمة إعلام الأكثر تحديدا تضفي نوعا من الدقة على فكرة الاتصال التي تظل مبهمة؛ ويسمح هذا التزاوج بخدمة مجموعات كبيرة من المتخصصين ذوي الاهتمامات المختلفة، دون اتخاذ موقف نهائي حول ابستيمولوجيا هذا الحقل." (Boure, 2002, p. 10)

وإذا كان هذا وضع هذا الحقل أو الحقلين في هاتين المنظومتين، فإن العالم العربي يتموقع بين هاتين الرؤتين، إذ لم يستطع تأسيس رؤية خاصة به في هذا الحقل مثلما حدث في باقي الحقول المعرفية الأخرى. وهنا تتداعى الى أذهاننا تلك المقولة الجابرية، التي تلخص لنا وضعية الفسلفة الإسلامية، بالقول أنها "لم تكن قراءة متواصلة ومتجددة باستمرار لتاريخها الخاص، كما هو الشأن بالنسبة للفلسفة اليونانية والفلسفة الأوربية الحديثة، بل كانت قراءات مستقلة لفلسفة أخرى هي الفلسفة اليونانية..." (الجابري، ٢٠٠٦، ص. ١٠) هل نغامر ونقول أن العالم العربي لم يفعل، منذ بداية خلوده الى الأرض، سوى إعادة إنتاج نماذج الآخر، الغربي تحديدا، وقراءة أوضاعه بعيون هذا الآخر، ابتداء من المسميات وصولا الى الشبكات المفاهيمة والرؤى التي يصدر عنها، سواء في الحقل الاتصالي الإعلامي أو غيره من الحقول الأخرى؟

من الضروري التذكير هنا، لاعتبارات تاريخية ومعرفية، أن علوم الاتصال وعلوم الإعلام، سواء بصيغة الجمع بينهما أو بالتمييز بينهما، يعتبران كحقلين دراسيين حديثين مقارنة بباقي العلوم الاجتماعية الأخرى كعلم الاجتماع وعلم النفس مثلا. فقد صاحب ظهورهما، في منتصف القرن العشرين، بروز منظورات جديدة في الفضاء البحثي سعت الى تجاوز بعض النقائص في النموذج الذي قاد البحث

العلمي لقرنين على الأقل، ونعنى بذلك النموذج العقلاني الوضعي. فعلى المستوى الإبستيمولوجي، وجدت علوم الاتصال وعلوم الإعلام نفسها، منذ البداية، في محور الصراع بين الرؤيتين الوضعية (Positivism) والبنائية (Constructivism). ولم يكن السبب في ذلك يعود فقط الى التجاذب الحاصل بين منظورين مختلفين (الوضعي والبنائي)، بل الى طبيعة هذين "العلمين" الجديدين اللذين يركزان على دراسة الموضوعات التي تنتمي الى حقل الممارسة المهنية (منظور وضعي) والاجتماعية (منظور بنائي). وعليه، فإن الكثير من الدول والفضاءات الثقافية، قامت بالتمييز بين الحقلين، من خلال إضفاء مسمى علوم الاتصال على الممارسات المتصلة بالتفاعل بين الأشخاص، وعلوم الإعلام على التفاعل بين "الأداة" والإنسان، على اعتبار أنه من المعقول اعتبار أن "رزمة" من المعلومات أو كتاب في مكتبة، مثلا، يشكلان في نهاية الأمر شيئين قائمين بذاتهما.

هذه الحداثة الزمنية مقارنة بالعلوم الأخرى، جعلت من علوم الإعلام والاتصال تتغذى من الكثير من العلوم والحقول المعرفية، وهو أمر "حبّذه البعض ورأى فيه توسيعا منتظما للمرجعيات النظرية ولمحاور البحث الحالية...، واعتبره البعض الآخر، مصدرا للكثير من الغموض، وأكثر من ذلك فهو أصل التصورات التوفيقية، حيث أن كل باحث تستهويه أن يأخذ من هنا وهناك دون مراعاة للتناسق النظري أوالشكلي للمساهمات المختلفة والجزئية." (الصادق، ٢٠٠٥، ص. ٥٣٩) والحق أن هذه التخصص المعرفي الأكاديمي هو تخصص/ملتقى أو متعدد المشارب (interdisciplinarity)، قائم بذاته، إذ يضم داخله الكثير من العلوم الاجتماعية والإنسانية كعلم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، والعلوم السياسية، الخ، والعلوم الهندسية كعلوم الحاسوب، ودراسة الإشارات والاتصالات، وحقل الابستيمولوجيا، والدراسات النسقية (Systemic) والسيبرنيطقا (Cybernetics)، وغيرها (ماتلار و متلار، ٢٠٠٥، ص. ١٩).

وقد اغتنى هذا الحقل المعرفي في الفضاء البحثي الغربي عموما من خلال تعدد مقارباته واتساع شبكته المفاهيمية وعدته المعرفية وتنوّع اشكالياته، وتجسد ذلك في كثرة الملتحقين به بحثا وتدريسا ودارسة. فبعد أن اقتصر، في البداية، على بعض الجامعات والمعاهد والكليات، لا يكاد اليوم يخلو بلد من عشرات الجامعات والكليات التي تدرّس هذا التخصص، بل إن عدد المنتسبين إليه في كثير من البلدان، سواء تعلق الأمر بالهيئة التدريسية أو الطلبة، قد تجاوز الكثير من التخصصات الاجتماعية والإنسانية "العريقة".

وإذا كنا نسلم بكونية العقل، فإننا نؤمن في المقابل أن تجلياته غالبا ما تكون محلية. فهل استطاع "البحث العربي" – نستخدم هذه العبارة هنا بصيغة الجمع تجاوزا لأن كل ما هو موجود يحيل الى جهود قطرية وقد لا يتجاوز الأمر محاولات فردية هنا وهناك - في علوم الإعلام والاتصال أن يؤسس إشكالياته ومفاهيمه ونماذجه القرائية الخاصة به في مقاربته للظواهر الاتصالية والإعلامية ضمن السياقات العربية؟

لماذا يغيب الفعل المعرفي التراكمي في هذا الحقل رغم مرور وقت ليس بالقصير على وجود مؤسسات أكاديمية وبحثية؟ لماذا تغيب إرادة المعرفة عن هذا الحقل وتسود عقلية "القراءات" الإنشائية التي تتوسل باللغة لممارسة كل أنواع التسطيح؟ هل نقول أن اهتمامات الباحث العربي عموما ما زالت تتمركز حول"... تحصيل الأقوات من الحنطة وغيرها... (ابن خلدون، ١٩٦٢، نقلا عن الجابري، ٢٠٠٦، ص. ٣٥٨)، ما فعل ابن خلدون وهو يحلل شروط الانتقال من البداوة الى الحضارة. وبالتالي، فإن تجاوز هذه الوضعية، يتطلب بداية التخلص من عقلية "الحنطة" هذه. إن العوائق الموضوعية كثيرة لا شك، وهي تتوزع بين الثقافي والاجتماعي والمؤسساتي، ولكن العائق الأكبر، في نظرنا، يتمثل في هذا "الباحث" نفسه. هذا الذي لا يتجاوز أفقه ساعات "تدريسية" يقضيها في ترديد مقولات تجاوزها الزمن وتقترب من الدوغمائية[١] أكثر من اقترابها من العلم، أو القيام "بدراسات" تحتل فيها الجداول الإحصائية المنزوعة من سياقاتها الحيّز الأكبر، وتغيب عنها الصرامة العلمية، صرامة العقل البرهاني وتحضر فيها إنشائية العقل السردي. وإذا سألت أحدهم أو إحداهن عن سبب هذا الحضور الطاغي للتسطيح واستبعاد العقل، أجابك أوأجابتك، بأنها مقتضيات الترقية!!!

لقد أتجه قسم من بلدان العالم العربي الى الأخذ بالتّقليد الأنجلوسكسوني في مسميات ومقررات ومحتويات برامجه الدراسية الإعلامية والاتصالية لأسباب كثيرة ربما يرتبط أهمها بالإرث الاستعماري والوظيفية الإيديولوجية للفضاء الأكاديمي عموما، وقسم ثان تبنى "النموذج" الفرانكفوني في التسمية والمحتوى المعرفي، لأسباب لا تختلف كثيرا عن الأسباب السابقة، وقسم ثالث اختار منزلة ثالثة توفيقية تجمع بين الاثنين، ولكن ليس دائما على مستوى الاغتناء المعرفي والمنهجي من المنظومتين، بل ربما انحصر الأمر غالبا في مسميات البرامج الأكاديمية التي تعكس هذا الجمع، ولا تتجاوزه الى غيره.

إن ازدهار الصناعات الإعلامية في هذا العالم العربي والحاجة الى كوادر إعلامية تملك كفايات مهنية بعد حصول دوله على استقلالها، دفع بالقائمين على أموره الى التساوق مع هذا الوضع وإنشاء الكثير من الكليات والمعاهد والأقسام المتخصصة في الدراسات الاتصالية والإعلامية. وقد وفرت هذه المظلات الأكاديمية، على اختلاف مسمياتها ومرجعياتها، مقررات دراسية تتوزع مضامينها بين الصحافة والإذاعة والتليفزيون والعلاقات العامة، وكل ما يتصل بالإعلام الجديد. وقد كان رهانها منذ البداية تزويد الملتحقين بها بكفايتين متكاملتين: أدبية/مهنية من خلال التّحكم في قواعد الكتابة الإعلامية، وتقنية/مهنية من خلال إتقان استخدام التكنولوجيا في العمل الإعلامي. وقد تفاوت نجاح هذه المؤسسات، فمنها من بنى لنفسه رأسمال رمزي وصورة ذهنية جعلتاه مقصدا للكثير من الطامحين الى ممارسة العمل الإعلامي بكل

[١] مصطلح يعني التزمت العقائدي والفكري والانتصار للرأي بالقوة بدل الاحتكام إلى الحجة والدليل.

تفرعاته، ومنها من تكلست رؤيته وانقطع عن حركية الواقع فأصبح دوره لا يتعدى الدفع بالآلاف سنويا إلى سوق البطالة.

وهو ما يجرنا الى بيت القصيد في حديثنا هذا، والذي هو محور هذا السفر الضخم (٤٤٤ ص) الذي بين أيدينا للباحثة مي العبد الله. إنها إشكالية التأهيل المهني، أو"إشكاليات التكوين المهني" كما تسميها صاحبة الكتاب. وقد توزّعت مادة الكتاب على سبعة فصول، جاءت بالشكل التالي: لإشكاليات نظرية ومنهجية ؛ الإعلام والاتصال في الوطن العربي؛ خصائص وحاجات التكوين المهني في العالم العربي؛ إشكالية النظام الإعلاني اللبناني؛ التكوين الإعلامي في مجال الإعلام والاتصال في لبنان؛ حاجات سوق العمل للبناني؛ وأخيرا نحو إستراتيجية للتكوين المهني في الوطن العربي.

والحق أن هذه الإشكالية التي تثيرها الباحثة تتكثف فيها الكثير من الإشكاليات المصاحبة لها والناتجة عنها، والتي تتجلى اختصارا في سؤال "القطيعة" بين سوق العمل "وسوق" التأهيل (الصادق، ٢٠٠٨). هل أن الأمر ناتج عن اختلاف الرؤى في الفضاءين، وبالتالي غياب التنسيق والتواءم بينهما، أم أنه يتعلق بجوانب إجرائية يمكن إذا ما تم تجاوزها بناء علاقات صحية بينهما؟

إن نظرة سريعة على المقررات الدراسية ومضامينها في كليات ومعاهد وأقسام الاتصال والإعلام في العالم العربي توحي بترهّل أغلبها وعدم مساوقتها للواقع. فالحراك المتسارع الذي يطبع لعالم الخارجي، والظواهر الإعلامية تحديدا، غالبا ما لا يجد له صدى في هذه المقررات، ذلك أن القائمين عليها إما من المعظمين للتكنولوجيا والمحتفين بها والذين يعتقدون في قدرتها التحويلية غير واعين بأن هذه التكنولوجيا لا يمكن أن تتجاوز كونها أداة في خدمة فكرة؛ وإما من المُؤَدْلجَين (من إيديولوجيا) الذين لايحسنون غير فن الخطابة والاختباء وراء مقولات دوغمائية حفاظا على مصالحهم وتكريسا للرداءة التي يحرصون على إنتاجها بكل الصور والأشكال.

إن لهذا المتن "حسنات" كثيرة، منها أن الباحثة اعتمدت في مقاربتها وقراءتها لهذه الإشكالية على الجمع بين زاد فكري متنوع وثري في الرؤية والمفاهيم، أنتجته سنوات طويلة في البحث والتدريس، ومعرفة دقيقة بفضاء الممارسة المهنية، خاصة داخل لبنان، حيث عمدت الى تقصي آراء كل الفاعلين من أكاديميين ومشرّعين ومهنيين وطلبة؛ وهو ما يؤهلها الى مقاربة هذه الإشكالية بكفايتين مهمتين: الكفاية المعرفية والمفاهيمية، وكفاية معرفة الفضاء المهني موضوع الدراسة. وقد عززت رؤيتها ومنهجها بفصول مدخلية مهمة تتبّعت فيها السياقات الاجتماعية والفكرية التي ظهرت فيها علوم الإعلام والاتصال، وكيف تشكّلت شبكتها المفاهيمة، ومساراتها في الغرب والعالم العربي بعد ذلك.

وقد اجتهدت الباحثة، بعد استعراضها لواقع التأهيل في العالم العربي ولبنان تحديدا، في تقديم رؤية "إصلاحية" لتجاوز "القطيعة" بين الفضاءين، حرصت على صياغتها صياغة عملية، ودعمتها

بخلاصات وتوصيات تُمكّن، إذا أُحسن استثمارها، من إعادة تأسيس علاقات سويَّة بين العالم الأكاديمي وفضاء السوق.

المراجع

- أرمون، ماتلار، وميشال ماتلار. (٢٠٠٥). تاريخ نظريات الاتصال. (ترجمة نصر الدين لعياضي والصادق رابح). بيروت: المنظمة العربية للترجمة (النص الأصلي نشر ٢٠٠٢).
- بن خلدون، أبو زيد عبد الرحمان بن محمد. (١٩٦٢). مقدمة ابن خلدون. (تحقيق علي عبد الواحد وافي، ج ٣). القاهرة: لجنة البيان العربي.
- الجابري، محمد عابد. (٢٠٠٦). نحن والتراث. قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- الصادق، رابح. (٢٠٠٥). بعض التساؤلات حول علوم الإعلام والاتصال. ضمن استشراف المستقبل. أوراق المؤتمر العلمي التاسع لكلية الآداب والفنون، جامعة فيلادلفيا. عَمان: منشورات جامعة فيلادلفيا.
- الصادق، رابح. (٢٠٠٨). الفضاء المرئي بين المتطلبات الأكاديمية والاكراهات المهنية. مجلة الإذاعات العربية، ٤.
- Boure, R. (2002). (eds.). Les origines des sciences de l'information et de la communication. Regards croisés. Villeneuve d'Ascq: Presses Universitaires du Septentrion.